تدبّر الزّهراوين

سورة آل عمران

د. رقية العلواني

تدبّر سورة آل عمران

د. رقية العلواني

- هل تشعر بالخوف من التراجع عن طريق الحقّ والخير والهداية؟
- هل تشعر بالضعف حين تواجهك أزمة أو محنة في نفسك أو في أهلك ..مالك؟
- هل تخشى من تقلّب إيمانك أمام ما تمرّ به من أحداث يومية؟

إليك الإجابة في الصفحات التالية.

مقاصد السورة وغاياتها

الحمد للّه حمد الشاكرين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

سورة آل عمران ثاني الزّهراوين، تأتي بعد سورة البقرة التي تعلّم الإنسان طريق الهداية وتسير به عليه، تعلّمه الثبات أمام المحن والصعوبات المختلفة التي هي من طبيعة هذه الحياة الدنيا.

سورة البقرة أوضحت المنهج الذي ينبغي أن يسير عليه الإنسان ليسعد في حياته وفي آخرته. علّمته كيف يتحرّر من الخوف والقلق ليعيش بحرية في ظلّ توحيده وإيمانه ويقينه باللّه سبحانه لا شريك له.

إلا أن ذلك المنهج والسير عليه يحتاج إلى أدوات ووسائل تثبيت وترسيخ لتلك المعاني الواردة فيه، فإذا بهذه السورة تحمل هذه الوسائل من خلال عرض مواقف عملية ونماذج لأناس ارتضوا المنهج الرباني وعاشوا عليه من الصالحين والصدّيقين والأنبياء.

والسورة في عرضها لتلك النماذج تقدّم جوانب من النفس البشرية في خوفها، قوتها، ضعفها، تنازع الخير والشر فيها.. لتجعل من الثبات أمرًا واقعيًا لا مثاليًا ضاربًا في الخيال أو بعيدًا عن طبيعة النّفس الإنسانية التي لا تخلو من ذلك كله.

من هنا ابتدأت السورة العظيمة بعد التوحيد بالدعاء والتضرّع إلى اللّه سبحانه؛ (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨)). هذا التضرّع للّه عزَّ وجلَّ الذي يعبّر عن خوف المؤمن وقلقه من الزيغ والزلل، من البعد أو انحراف القلب عن الهداية، مستغيثًا برحمة اللّه سبحانه، معلنًا ألا حماية للقلب من الزيغ إلا بوقاية من اللّه سبحانه.

ولذلك كان أكثر دعاء النّبي صلى اللّه عليه وآله وسلم "يا مقلب القلوب ثبّت قلبي على دينك". الدعاء بالثبات المناقض للزيغ والانحراف، ذلك المقصد الأساس الذي تدور حوله سورة آل عمران؛ التي تُدافع عن صاحبها بقدر ما يثبت الإيمان في قلب صاحبها القائم بها.

وتبدأ السورة بأعظم حقيقة في حياة الإنسان؛ التوحيد. وتؤسس السورة التوحيد على الإيمان بأسماء اللّه وصفاته بدءً باسم اللّه الأعظم (اللّه) كما رجحّه كثيرٌ من أهل العلم. ومن ذلك أن النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمع رَجُلًا يَقُولُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَدْ سَأَلَ اللَّهَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ. سنن ابن ماجه.

وتقدّم سورة آل عمران العديد من المواقف والتحديات التي قد تواجه المؤمن والمجتمع في طريق الحياة منها ما يتعلق؛ بالمعتقدات الدينية ومنها ما هو داخلي ومنها ما هو خارجي، لتؤكد السورة في كل ذلك أن التوحيد أعظم ما يُتسلح به في مواجهة ذلك كله.

وقد يظن القارئ لأول وهلة أن السورة تتعرض لمواقف حدثت مع أهل الكتاب وقت نزول القرآن الكريم ولكنها انتهت اليوم، وهذا خلل واضح. فالقرآن الكريم يعالج من خلال عرضه للمواقف التاريخية أحداثًا حاضرة ومقبلة. وهو في وقوفه عند تلك الأحداث إنما يقدّمها كنماذج لما حصل لإفادة الدروس والعبر للمتدبِّر فيها وربطها بواقعه.

وفي ثنايا ذلك تقدّم السورة نماذج لمن ثبت على الحق وواجه الصعوبات والتحديات بذلك التوحيد الراسخ واليقين الفذّ بالله سبحانه، مبتدئًا بنموذج للمرأة الصالحة (زوجة عمران). والمرأة حاضرة بشكل واضح في السورة باعتبارها عنصرًا هامًا في المجتمع والأمة، تتعرض للعديد من التحديات بحكم الوظائف المناطة بها، ولا تخرج السورة في عرضها عن الواقعية أو تجرّيد الأشخاص من إنسانيتهم وبشريتهم بل تؤكد وجود جوانب الضعف البشري وكيفية التغلب عليها.

من هنا كانت السورة ثاني الزّهراوين فهي نبراس يضيء الطريق لمن صَاحبها ولازَمها في حياته. فالشدائد والتحديات والفتن من طبيعتها الظُلمة، وهذه السورة بآياتها تبدد تلك الظُلمة والحيرة والاضطراب.

وقفات مع السورة

تبدأ السورة بالتوحيد (القضية الكبرى في حياة الإنسان والمجتمع والأمة) تلك القضية التي إن صحّت، صحّ معها كل أمر وإن حدث فيها خلل، سرى وانتقل ذلك الخلل لكل شيء.

والتوحيد الذي تنّقيه وتُزكّيه سورة آل عمران من الشوائب توحيد الصادقين الموقنين الذين يجعلونه منهجًا لحياتهم يسيرون عليه، ويستنيرون بنّوره في ظلمات الفتن والامتحانات.

والتوحيد يقوى ويشتد عُوده في القلب حين يستحضَر المؤمن ألا مشرِّع له في حياته إلا اللّه سبحانه وتعالى، وهذا ما تتحدث عنه سورة آل عمران من البداية.

(الم(١) اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) والربط بين هذه الآية وآية الكرسي واضح، فالربّ الذي اتخذه المؤمن إلهًا ومشرعًا حيُّ قيوم، دائم الحياة والقيّومية على كل شيء سبحانه. ومن قيامه سبحانه بشؤون خلقه أن أنزَل لهم كتابًا يحمل منهج الحياة والعيش

على هذه الأرض (نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ(٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ).

الآيات في بداية سورة آل عمران تقّدم للبشرية الكتب السماوية السابقة التي أنزلها الله على عباده، التوراة والإنجيل التي نزلت هداية للبشرية في طريقها لتعلّم الناس كيف يعيشون وكيف يتعاونون وكيف يصلون بالحق إلى المسار الذي ينبغي أن يصلوا إليه. والقرآن خاتمة هذه الكتب (وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ) ليفرق بين الحق والباطل، يفرق بين الضلال والهدى، يفرق بين النّور والظلام.

ثم تتوالى الآيات لتبيّن خصائص هذا القرآن العظيم ومواصفاته التي تجعل منه المنهج الحقّ فالذي أنزله لا يخفى عليه شيء (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ (٥) ليجعل الإنسان يستلّ كل ما يمكن أن يخالج سرّه فيطهّره وينّقيه ويصفّيه، فليس ثمة شيء يمكن أن يخفيه الإنسان على الله عزَّ وجلَّ. الأمر الذي يدفع به لمراقبة ذاته وسرّه وخلجات نفسه وخواطره وتهذيبها.

وهنا تبدأ السورة بتأسيس الثبات في قلب المؤمن من خلال تعريف الإنسان بخالقه وسعة علمه وإحاطته بخلقه وشؤونهم.

وهو ثبات لا يعرف الزيغ أو التذبذب في الأفكار أو المعتقدات، حيث القرآن يبيّن له ويوضّح ما يشتبه عليه ويفرق بين الحق والباطل (مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ) كتاب مُحكم

مُتقن، متقن في صياغته، متقن في أحكامه، متقن في تشريعاته.

ونزول الآيات المتشابهات للاختبار والابتلاء، والأصل ردّ المتشابه إلى المحكم وعدم النزوع إلى الكتاب بغرض تمرير غايات مسبقة في نفوس البشر. وهنا تتضح عظمة القرآن الكريم في تخليص النفوس من شوائبها وهواها وتأكيد مجيئها للقرآن بغرض الاستهداء بنوره.

وعلى نقيض ذلك، الإنسان الذي يأتي إلى القرآن الكريم وفي نفسه انحرافات فكرية أو عقدية (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) فهولاء لا يزيدهم القرآن إلا ضلالًا لفساد نفوسهم وخبث نواياهم وغاياتهم. أما المؤمن فلا تزيده تلك الآيات إلا هدى وثباتًا ورسوخًا. ولذلك ختمت الآية السابعة في الحديث عن المحكم والمتشابه في القرآن (وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧)).

والحديث عن أولي الألباب أصحاب العقول الراجحة أولئك الذين يتقنون وزن الأمور وربط القرارات بخواتيمها ونتائجها البعيدة ولا تقف بهم عقولهم عند الاهتمامات الصغيرة. فهؤلاء هم الذين يدركون أن الثبات أعظم ما ينبغي الحفاظ عليه مهما بلغت التحديات والصعوبات.

وقد قادتهم عقولهم الراجحة إلى التضرّع لله طلبًا لأهم وأعزّ مطلوب؛ الثبات، مدركين أن الثبات منحة يُنعم بها الله على عباده

المقبلين عليه بالتوحيد والطاعات (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً) فالزيغ نقيض الثبات وهو مرض يقع في القلب ثم ينعكس على تصرفات الإنسان وسلوكه. وخطورة الزيغ وتقلب القلب و أحواله أمام التحديات والابتلاءات من أخطر الأمراض التي تصيب الفرد والأمة.

(إن العبد إذا علم أن اللّٰه - سبحانه و تعالى - مقلّب القلوب وأنه يحول بين المرء وقلبه وأنه - تعالى - كل يوم هو في شأن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وأنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء، فما يؤمّنه أن يقلّب اللّٰه قلبه ويحول بينه وبينه ويزيغه بعد إقامته وقد أثنى اللّٰه على عباده المؤمنين بقوله: ((رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا)) **فلولا خوف الإزاغة لما سألوه أن لا يزيغ قلوبهم).**

ابن قيم الجوزية. طريق الهجرتين

ويأتي مع الدعاء الخطوة الثانية التي تقدّمها سورة آل عمران لمعالجة الزيغ ألا وهي استحضار الآخرة وأن هذه الحياة العاجلة فترة قصيرة الأمد لا ينبغي أن تأخذ البشر بعيدًا عن غايتهم التي لها خُلقوا (رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩)).

(وهذه الأصول الثلاثة وهي الإيمان بالله وباليوم الآخر والعمل الصالح هي الموجبة للسعادة في كل ملة كما قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ).

ابن تيمية. قاعدة في المحبة

ولتصبح هذه الحقيقة ظاهرة للعيان فالسورة تقدّم صورة لنهاية أولئك الذين زاغت قلوبهم عن منهج الحق فلم تُغنِ عنهم أموالهم ولا أولادهم من مواجهة تلك النهاية المحتومة التي جعلت منهم وقودًا للنار (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ).

(الدنيا في خضْرَتها كشجرة، وفي سرعة انقضائها وقَبْضها شيئًا فشيئًا كالظِّل، والعبد مسافرٌ إلى ربِّه، والمسافر إذا رأى شجرة في يوم صائف لا يَحسُن به أن يَبني تحتها دارًا، ولا يتَّخِذها قرارًا، بل يستظلُّ بها بقَدر الحاجة، ومتى زادَ على ذلك انقطع عن الرفاق)

ابن قيم الجوزية. عدّة الصابرين

وهنا يتوجه الكلام للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أن لله في تصريف خلقه سُننّا تسري، ومنها أن الغَلبة في النهاية لعباد الله المؤمنين الصادقين وأن نهاية الكفر الهزيمة والاندحار(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(١٢)).

ولذلك جاءت الآيات بتقدّيم علامات آخرى على هذه السنّة الماضية في الكون المتمثلة في انتصار أولئك الذين يقاتلون في سبيل الله على أصحاب الباطل ولو طال الأمد (قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣)). والقرآن كتاب يعلّم الناس أن يقرأوا واقعهم وماضيهم من خلال قراءة هذا القرآن العظيم.

ثم تنتقل آيات سورة آل عمران إلى وسيلة آخرى من وسائل الثبات؛ إدراك حقيقة الدنيا وحجمها الطبيعي لا ذلك الحجم الموهوم الذي يغترّ به الإنسان حيث تظهر الصورة أكبر من حقيقتها (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)).

هذه الآية تتحدث عن كل الدنيا ومظاهرها وزينتها التي لا تخرج عن كونها مجرد متاع وأن الله عنده ما هو أفضل وأبقى وخير منها (ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ). وليس المراد أن

هجر الدنيا وملذاتها المباحة بل الاعتدال والتوسط في الأخذ منها والتزوّد من ذلك كله لِما هو خير وأبقى (قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ).

(القلوب مفطورة على الإقرار بالله تصديقًا به ودينًا له لكن يعرض لها ما يُفسدها إما من الشبهات التي تصدّها عن التصديق بالحقّ وإما من الشهوات التي تصدّها عن اتباعه).

ابن تيمية/الفتاوى

فلا يمكن للإنسان أن يقلل من تعلقه بالدنيا ومتاعها دون الإحساس والوعي بالآخرة وحياتها واستحضار وصفها كما تأتي بها الآيات الكريمة، وهو أسلوب تربوي عظيم. فالذي يريد الوصول إلى هدف معين، عليه أن يعيش ذلك الهدف ويضعه نصب عينيه، ينام ويصحو عليه، يراه بعين قلبه فيزداد تعلقًا به وحرصًا عليه وتضرّعًا لله بالوصول إليه وهكذا حال المؤمنين في هدفهم الأسمى؛ مغفرة الله وعفوه (الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦)).

عندها تتحول تلك الطاقة الإيمانية الهائلة إلى سلوكيات وأعمال باطنة وظاهرة تحكم حركة الإنسان وحياته (الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧)).

وبدأت السورة بأخلاقيات هؤلاء المؤمنين الثابتين وعلى رأسها؛ الصّبر. لأن الثبات يحتاج إلى صَّبر على كل تلك الصفات الحميدة. فالطاعة وطول القيام بين يدي اللّه والإنفاق والبذل والعطاء ومداومة ذكر اللّه وطلب مغفرته...كلها تحتاج إلى صَّبر وتحمل كما جاء في سورة الكهف (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) الكهف).

ثم تنتقل بعد ذلك الآيات في سورة آل عمران للحديث عن التحديات المتعلقة بالمعتقدات الدينية وما يُبث في المجتمع من أفكار منحرفة وكيفية التعامل معها من خلال استحضار ما تعرّض له المجتمع المسلم الأول في المدينة من قِبل بعض أهل الكتاب.

وتبدأ الآيات بتأكيد التوحيد بقوله تعالى (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) فالتوحيد قضية حتمية ألغت بشهادتها كل أنواع وصور الجهل البسيط والمركَّب، بشهادة الربّ سبحانه لنفسه بوحدانيته المطلقة التي ذُكرت في الآية مرتين (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ). فأيّ

انحراف عن ذلك التوحيد يعد زيغًا و ضلالًا. والزيغ يؤدي إلى الضلال كما أن الثبات على الحق يؤدي إلى الهدى.

ثم تؤكد الآيات أن هذا ما ارتضاه الله لعباده (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) فالاستسلام والانقياد والخضوع لله عز وجل رسالة الأنبياء جميعًا إلا أن الاختلاف جاء من قبيل ظلم بعض أتباع الأديان لأنفسهم وغيرهم (وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ).

والمطلوب من المؤمن الثبات على الحق (فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ).

إلا أن الباطل والزيغ يمكن أن يقوى ويمتلك أساليب المنعة، ويظهر وكأنه علا على الحق وانتشى، فتأتي الآية الكريمة لتبيّن وتذّكر الإنسان بأن عاقبة الأمور لله وحده وأن الملك لله وحده وإن بدا الأمر - في بعض الأحيان- على غير ذلك لمن لا يدرك الحقيقة الباقية تحت وطأة ظروف يمرّ بها البشر (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ).

فالله هو مالك الملك يُؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء وبيده وحده عاقبة الأمور، وكل ما يحدث أمام البشر من تحديات ووقائع ومجريات إنما هو من قبيل الابتلاء والاختبار. واستقرار هذه الحقيقة في قلب المؤمن يولّد الاعتزاز بإيمانه، فلا يعتزّ بولاء لغير

المؤمن. فالمؤمن اتخذ اللّه وليًا فأنّى له أن يتخذ من كفر بخالقه وليًا من دون اللّه!

(إذا تعرّف النّاس إلى ملوكهم وكبرائهم وتقربوا إليهم لينالوا بهم العزّة والرفعة، فتعرّف أنت إلى اللّه وتودد إليه، تنل بذلك غاية العزّة والرفعة).

ابن قيم الجوزية/الفوائد

الإيمان الذي تبنيه سورة آل عمران عميق يبدأ بإيمان الإنسان بإحاطة اللّه سبحانه وتعالى بكل شيء. الأمر الذي يدفع به إلى مراقبة الإنسان لخواطره ويقينه أن اللّه سبحانه مطلّع عليها (قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ). فالإيمان يتطلب من الإنسان تطهير قلبه وتزكية نفسه من الزيغ.

حتى إذا استقرت هذه المعاني في نفسه، أدرك أن الإيمان ليس مجرّد ادعاء بل هو الإيمان ليس ادعاء التزام واتباع وسير على المنهج الذي أنزله اللّه سبحانه لخلقه وأرسل به رسوله (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ).

المؤمن وقّاف عند أمر اللّه عز وجل ونواهيه، يترك محابّه هو إلى ما يحبّه اللّه ورسوله، يترك ما يحبّ لما يحبّه اللّه ورسوله لأنه يؤمن تمامًا ويثق أنه إذا ترك شيئًا للّه عوّضه اللّه خيرًا منه. من هنا جاء الشرع ليُخرج الإنسان من ميل نفسه وهواه إلى ما يأمر به اللّه ورسوله من هنا يتولّد الثبات كما يتولّد الزيغ من اتباع الهوى.

(لا تزول الفتنــة عن القلب إلا إذا كان دين العبد كله للّه عزَّ وجلَّ ، فيكون حبّه للّه، ولما يحبّه اللّه وبغضه للّه ولِما يبغضـه للّه).

ابن تيمية/مجموع الفتاوى

ومن ثمّ تنتقل الآيات للحديث عن نماذج من الصالحين والصدّيقين ممن عاشوا على الحق وماتوا عليه، ممن اصطفاهم اللّه عز وجل واختارهم بعلمه المطلق سبحانه (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣)).

والسورة في أول نموذج تعرضه للثابتين على الحق تقدّم امرأة عمران. تلك المرأة التي سمت وارتقت بآمالها وأهدافها وطموحاتها، لتحوّل عملية الولادة الطبيعية التي تحدث يوميا إلى مشروع رسالة.

امرأة عمران توجهت بكلّها للّه متضرعة إليه أن يجعل ما في بطنها نذرًا محررًا من كل التكاليف ومن كل الأعباء ليتفرّغ لخدمة بيت المقدس وعبادة اللّه وحده.

وهنا وقفة تربوية راقية وتنْبيه لكل الآباء والأمهات بتربية الطفل منذ نعومة أظفاره على أن يكون صاحب مشروع ورسالة. يستشعر بالمسئولية إزاء نفسه والمجتمع من حوله. ولذلك هذه المرأة العظيمة دعت ربها قالت (فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥)). وفي

الآية لفتة عظيمة إلى أهمية استحضار الإخلاص في النية والعمل والإلحاح على الله سبحانه بقبوله فتلك من دواعي القبول.

اجعل لك نيّة صادقة في كل عمل تقوم به

وقد واجهت امرأة عمران تحديًا صعبًا فقد وضعت أنثى في مجتمع تعارف أهله على أن من يتفرغ لخدمة بيت المقدس ولعبادة الله يكون ذكرًا لا أنثى. إلا أن هذه المرأة الصادقة لم تتخل عن حلمها وهدفها أمام تلك الصعوبات بل توجهت من جديد لخالقها بقلب ملؤه التوكل على الله والاستعانة به في الأمور كلها. وهكذا دأب المؤمن، قلبه معلق بخالقه لا يرى عونًا له على ما يمرّ به إلا الله ولا يستغيث إلا به، ليحقق ذلك في نفسه ثباتًا على الحق مهما اشتدت الصعوبات (وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦)).

ولسنا هنا أمام موقف عادي بل أمام أمر يستحق التوقف عنده طويلا فمن المعروف أن نساء العالم يحملن ويلدن، ولكن هذه المرأة استطاعت تحويله إلى مشروع قيَمي، مشروع هادف، مشروع حياة ورسالة من خلال إيمانها وإخلاص نيّتها للخالق الواهب. فكانت النتيجة (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا) وهذا القبول جاء نتيجة الثبات واليقين.

كلما ازداد الإنسان ثباتًا على أوامر الله كلما ازداد الرسوخ واليقين في قلبه. وكلما ازاد الإخلاص في قلب الإنسان، كلما أقبل الله سبحانه عليه بالمنح والقبول لعمله وذاك من أعظم النعم.

من هنا توالت النعم على آل عمران، فقد تكفل زكريا النبي العابد المتبتل لربه برعاية مريم، فقام على تربيتها وتأديبها لتكبر في أروقة العبادة والطُهر والعفاف. والتربية التي قام بها زكريا عليه السلام لم تنحصر في توفير الحاجات المادية من طعام وشراب وملبس بل راحت إلى المتابعة والرعاية المتواصلة.

من هنا لاحظ أنه كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقًا من غير ذلك الذي يأتيها به (قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا).

والآية توجيه تربوي دقيق لكل المربين بعدم الاتكال على الثقة - فالمسألة لا تتعلق بثقة- ولكن عليهم متابعة أبنائهم والنظر فيما يدخل عليهم وتوفير كافة أشكال الرعاية الوجدانية والمادية لهم.

وتأتي إجابة مريم على زكريا في صيغة قانون وسنة ماضية في الخلق والكون (قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ(٣٧)). ذلك القانون الذي لا ينبغي أن يضعف في قلب المؤمن مهما ضعفت الأسباب المادية في يده، فالرزق بيد الله

سبحانه إن شا أجراه وإن شاء عطلّه ولابد للعبد من الأخذ بأسبابه المشروعة دون تعلق بها وغفلة عن مسببّها سبحانه.

وزكريا عليه السلام لم تتوافر لديه أسباب إنجاب الذرية فزوجته عاقر وانقطع رجاؤه لكنه تفطن إلى ذلك المعنى النفيس أن الله هو مسبب الأسباب وأن الأسباب حين تنقطع يبقى مسبب الأسباب سبحانه لا ينقطع الأمل فيهه ولا الرجاء منه.

فإذا به يتوجه إلى خالقه بقلب موقن أن الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، يسأله الولد ليكون امتدادًا لحمل الرسالة.

وهنا يضرب زكريا عليه السلام مثلًا جديدًا في الطموح والآمال، حين يجعل من الرغبة في الذرية تسمو وترتقي لتصبح عملًا صالحًا يريد به الإنسان إنجاب من يحمل التوحيد ويبلغّه ويرفع به رسالته، حيث جاء في سورة مريم (يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آَلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) مريم). وقد يتوهم البعض أن الميراث الذي يتكلم عنه زكريا عليه السلام ميراث المال والمتاع، ولكنه ميراث النبوة وحمل أمانة التوحيد والرسالة.

تلك الأمنية العظيمة تتسامى وترقى فوق آمال وأمنيات البشر الذين حوّلوا مسألة إنجاب الأولاد إلى شيء طبيعي جدًأ بدون هدف أو وقفة مع النفس في غايته، في حين أن صحة البداية تستجلب صحة النهاية (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ(٣٨)).

وإذا بالبشارة تأتيه وهو قائم يصلي بالمحراب بيحيى (فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ(٣٩)).

ثم تنتقل الآيات لعرض موقف آخر لمريم الصدّيقة التي نشأت في أجواء العفاف والطُهر وتعرضت لامتحان وابتلاء شديد صعب. هذه المرأة كانت تتولى قلبها بالذكر والابتهال والقنوت والركوع والسجود للّه سبحانه فأراد اللّه سبحانه وتعالى أن يبشرّها بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم.

والآيات - في سورة مريم- تصف موقف مريم الإنسانة وما أصابها من الخوف والهلع والقلق والشدة والضيق حتى قالت (يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا (٢٣)مريم). إلا أن الثبات واليقين تداركا مريم فإذا بها تأتمر بما أراده اللّه سبحانه لها وتواجه قومها بولدٍ من غير زوج وكلها يقين أن اللّه حاميها وكافيها من كل أحد (قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧)).

ترسّخت تلك الحقيقة في قلب مريم فما كان منها إلا ما يكون من المؤمن الثابت، التفويض وتسليم الأمر للّه الواحد الأحد. سلّمت أمرها للّه وجاءت قومها وهي تحمله وتحمل معه الثبات في قلبها واليقين وتدرك تمامًأ ما كانت ستواجهه من قبل قومها من اتهامات

وافتراءات وتطاولٍ عليها وهي الطاهرة العفيفة المبرّأة من كل سوء.

(متى صحّ تفويض العبد ورضاه، اكتنفه في المقدور العطف عليه واللطف به فيصير بين عطف الله سبحانه ولطفه .. فعطفه يقيه ما يحذره، ولطفه يهوِّن عليه ما قدّره)

ابن القيم/الفوائد

فكان الجزاء أن جعلها الله وابنها آية للعالمين وأنزل فيها وابنها آياتٌ تُتلى، وآتت عبادة مريم وقنوتها ثمارها في ثباتها وصبرها وجعلها الله وابنها آية للعالمين.

ثم تنتقل الآيات لتعرض نموذج عيسى عليه السلام الذي أحيط بكمّ مهول من المكائد والدسائس والخطط والابتلاءات منذ لحظة قدومه للدنيا، فما كان منه إلا أن ضرب نموذجًا آخر من نماذج الثبات والرسوخ على الحق وكذا كل الأنبياء.

ارتقى عيسى عليه السلام على كل ما حوله ليرفع راية التوحيد ورسالته (إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ(٥١)) الكلمة التي جاء بها كل الأنبياء، الكلمة التي ثبت عليها كل الأنبياء الكلمة التي جاء بها الأنبياء للناس ليجعلوا من الحق والعدل قيمة عليا لا يرتفع بها إلا من رسخ الإيمان في قلبه.

وواقع الأمر أن الله قادر على إعلاء الحق والعدل بمعجزة دون عمل البشر ولكن الله سبحانه سنّ القوانين وأمر بالعمل والأخذ بالأسباب اختبارًا لعباده وهو أعلم بهم.

ومن أعظم مواصفات هؤلاء البشر ثباتهم ودفاعهم عن الحق وبذلهم لكل ما يملكونه في سبيل إعلائه وحمايته (فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (١٤٦)).

من هنا نادى عيسى عليه السلام في قومه (قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ) وهو يدرك أن الله ناصره لكنه أراد أن يؤسس أن الحق لا بد أن يكون له من ينصره (قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢)).

فكانت سنّة الله ماضية؛ من يثبت على الحق والعدل لا بد أن يرتفع وأن الله ينصره. وليس النصر فقط في الدنيا وإنما فلاح الآخرة أعظم. أما أولئك الذين يبيعون ويشترون بالحقّ وبالعدل وبالقيم فلا خلاق لهم في الدنيا ولا في الآخرة وما لهم من ناصرين. هذا هو الحق الرسالة العظيمة التي جاء بها عيسى عليه السلام تسوقها آيات سورة آل عمران في سياق الحوار مع أهل الكتاب .

(من كان يظن أن الحق لن ينتصر على الباطل ... فقد أساء الظن بالله)

ابن القيم

وهنا تنتقل الآيات لحوار النّبي صلى الله عليه وآله وسلم مع أهل الكتاب بغرض إظهار الحق ليس لأجل تغيير قناعات أحد، فالإنسان مسؤول عن قناعاته وقراراته ولا إكراه في الدين، ولكن الغاية الأولى والأساس من الحوار إظهار الحق وليس حمل الناس عليه بالقوة.

ولذلك تنتقل الآيات في الحديث عن قصة عيسى عليه السلام وكيفية تغيّر أهل الكتاب من بعده وطبيعة التحوّل والافتراءات الحاصلة حول رسالة عيسى عليه السلام ومناقشة ذلك معهم، ولذلك جاءت الآيات بقوله سبحانه وتعالى (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١)).

قَالَ الْمُفَسِّرُونَ في هذه الآية : (لَمَّا أَوْرَدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدَّلَائِلَ عَلَى نَصَارَى نَجْرَانَ ثُمَّ إِنَّهُمْ أَصَرُّوا عَلَى جَهْلِهِمْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي إِنْ لَمْ تَقْبَلُوا الْحُجَّةَ أَنْ أُبَاهِلَكُمْ ، فَقَالُوا يَا أَبَا الْقَاسِمِ بَلْ نَرْجِعُ فَنَنْظُرُ في أَمْرِنَا ثُمَّ نَأْتِيك، فَلَمَّا رَجَعُوا قَالُوا لِلْعَاقِب، وَكَانَ ذَا رَأْيِهِمْ، يَا عَبْدَ الْمَسِيح مَا تَرَى؟ قَالَ : وَاللَّهِ لَقَدْ عَرَفْتُمْ يَا مَعْشَرَ النَّصَارَى أَنَّ مُحَمَّدًا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَلَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْكَلَام الْفَصْلِ مِنْ أَمْرِ صَاحِبِكُمْ، وَاللَّهِ مَا بَاهَلَ قَوْمٌ نَبِيًّا قَطُّ فَعَاشَ كَبِيرُهُمْ، وَلَا نَبَتَ صَغِيرُهُمْ، وَلَئِنْ فَعَلْتُمْ لَكَانَ

الاسْتِئْصَالَ، فَإِنْ أَبَيْتُمْ إِلا الْإِصْرَارَ عَلَى دِينِكُمْ وَالْإِقَامَةَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ فَوَادِعُوا الرَّجُلَ وَانْصَرِفُوا إِلَى بِلَادِكُمْ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ خَرَجَ وَعَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِرْطٌ مِنْ شَعْرٍ أَسْوَدَ، وَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَد احْتَضَنَ الْحُسَيْنَ وَأَخَذَ بِيَدِ الْحَسَنِ وَفَاطِمَةَ تَمْشِي خَلْفَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَلِيٌّ رَضِيَ اللَّه عَنْهُ خَلْفَهَا وَهُوَ يَقُولُ : إِذَا دَعَوْتُ فَأَمِّنُوا. فَقَالَ أُسْقُفُ نَجْرَانَ يَا مَعْشَرَ النَّصَارَى إِنِّي لَأَرَى وُجُوهًا لَوْ دَعَتِ اللَّه أَنْ يُزِيلَ جَبَلًا مِنْ مَكَانِهِ لَأَزَالَهُ بِهَا، فَلَا تُبَاهِلُوا فَتَهْلَكُوا وَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ نَصْرَانِيٌّ إِلَى يَوْمِ الْقِيامَةِ ثُمَّ قَالُوا : يَا أَبَا الْقَاسِمِ: رَأَيْنَا أَنْ لَا نُبَاهِلَكَ، وَأَنْ نُقِرَّكَ عَلَى دِينِكَ). تحفة الأحوذي. شرح سنن الترمذي. كِتَاب تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ.

وهنا يتضّح أن أمر إعراضهم ما كان تكذيبًا لما جاءت به رسالة الإسلام ولكنّه هوى النفس الذي نتج عنه التعصّب والعنصريّة للذات وإنكار الحق الواضح (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ).

ولنا أن نقف هنا: القرآن كتاب تُخاطَب به الأمم التي تؤمن به، فكيف تكون الآيات في سورة آل عمران في عدد من المواضع موجّهة توجيهًا مباشرًا لأهل الكتاب؟! (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ).

هذا القرآن رسالة عالمية، الأمر الذي يضع على عاتق المؤمنين به وأتباعه رسالة تبليغ الأمانة وإيصال الرسالة للأمم (أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ).

وابتدأ بالتوحيد إذ أن من مقتضياته التوجّه الخالص لله والتبرؤ ممن سواه في كل شيء فلا يشرِّع للبشر سواه، ولا يُتخذ من دون الله الأرباب. فالربّ هو الواحد الأحد الذي يشرّع و يُحلّ ويُحرّم، هو الذي يُعبد ولا يُعبد أحد سواه سبحانه.

فحق التشريع لله سبحانه وحده، له الحكم وهو أحكم الحاكمين. ورجل الدين لا ينبغي أن يتحوّل إلى إنسان متحكم في تسيير الشعوب والأمم وفق أهوائه ورغباته ومصالحه الشخصية. والنموذج الذي تقدّمه السورة لما وقع في اليهود والنصارى واضح. فقد ضلّل البعض من هؤلاء أقوامهم، حين تابعوهم بعمى وعلى غير هدى.

والآيات تُحمّل الأفراد مسؤولية مراجعة الحسابات والمعتقدات السابقة والأفكار، والوقفة الجادة في قضية الإيمان والتوحيد. فالولاء والانتماء لا يكون لأفراد بل للتوحيد والتشريع الذي جاء به الله سبحانه وتعالى وقام الأنبياء بتبليغه للناس.

وبهذا ألغت سورة آل عمران تلك الأوهام لتقطع دابر العنصرية والتعصّب. (يَاأَهْلَ الْكِتَاب لمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٦٥)).

والسورة تقدّم وسائل الحوار المثمر الجاد ومن أبرزها أن يقوم على أسس علمية واضحة. فإبراهيم عليه السلام كان سابقًا على اليهودية والنصرانية زمانًا وتاريخيًا فلِمَ تحاجّون فيه!.

وهنا تبرز خطورة الإتيان إلى الحق بأفكار مسبّقة، فالحق يخضَع له الإنسان ولكن الحق لا يخضع لأهواء أحد (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ٦٧).

وأبو الأنبياء جاء بالحنيفيّة السمحة وما كان من المشركين، ولذلك أولى الناس بإبراهيم ليس من يدّعون الانتساب له من يهود وغيرهم، بل من اتبعوه في رسالته. والخطاب لكل أولئك الذين يتوهمون أن الاتباع للأشخاص يتمثل في التقديس والتعصب لشخوصهم لا لمبادئهم ورسالتهم والحفاظ عليها (إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ٦٨)). وبهذا قطعت الآيات أواصر العنصرية والتعصب للأشخاص وللذوات وجعلت الانتماء الحقيقي للدين والرسالة.

والتعصب ينشأ من هوى النفس وشرُّ إله يُعبد هوى النفس، يقود لكل شرّ ويبرر لأصحابه الخطأ بعد الخطأ، ويزيّن الباطل لأهله فلا

يرون القصور أو الخلل فيه ويحسبون أنهم مهتدون.

من هنا جاءت الآيات القرآنية التالية توجّه لأهمية الإنصاف والعدل حتى في استعمال الألفاظ، فرفضت أسلوب التعميم فلا يكون الحكم على الجميع من خلال عمل البعض (وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ). والقرآن حين منع التعميم لما يحمل في طياته من معاني الظلم والتعصب والتعسف.

وتستمر الآيات في عرض مواقف البعض من أهل الكتاب تجاه دعوة الإسلام وسبل التحايل لأجل إثارة البلبلة في صفوف المؤمنين بها (وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آَمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آَخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ (٧٣)).

وهنا يكشف القرآن العظيم ذلك الأسلوب الذي جسَّد العنصرية والتعصب في أقوى صورها وأشكالها ليعزز قيمة العدل والإنصاف ويستلّ من قلوب المؤمنين كل مسحة للظلم، وتجاهل حقوق الآخرين ومصادرتها من خلال تقديم نموذج الإنصاف مع المخالف (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا (٧٥)).

فالناس مشارب مختلفة حتى وإن انتموا لدين واحد أو فئة واحدة، فلا ينبغي تعميم الحكم عليهم من خلال عمل البعض منهم.

والمتأمل في الواقع المعاصر يجد الكثير من ممارسات الجور تحدث نتيجة لإطلاق التعميم بدون تنبه لخطورته وموقعه في إيقاع الظلم على الآخرين.

كما تأتي الآيات بمخالفات البعض من أهل الكتاب ممن برروا لأنفسهم الكيل بمكيالين، فالأمانة والوفاء بالعهد ليست بالقيم المطلقة ولكنها بحسب أهوائهم ومصالحهم وتقديراتهم الذاتية لا التشريعية.

أما القرآن العظيم فيعلّم المؤمنين به أن الأمانة قيمة مطلقة مع المؤمن والكافر مع الأمين والخائن (بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦)). فالوفاء بالعهود، من القّيم العظيمة التي يرّبي القرآن الناس عليها دون تفرقة بين الناس. وهكذا يقوض القرآن تلك المواثيق الجائرة التي جاء بها البشر من جراء اتباعهم للهوى وتحكيمهم لمبدأ التعصب والعنصرية.

(العدل واجبٌ لكل أحد على كل أحد في كل حال، والظلمُ محرّم مطلقاً لا يباح بحال)

ابن تيمية

ثم تقدّم الآية السبب الذي دفع بالبعض من أهل الكتاب للتعامل بمكيالين؛ لأنهم اشتروا بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا، فباعوا تلك

القيم والمبادئ التي لم يختلف عليها الأنبياء بثمن بخس، فكان جزاؤهم الخسران في الدنيا والآخرة (لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧)).

لقد أدت كل تلك التجاوزات إلى المتاجرة بالدين، التي وقعت في صف البعض من رجالات الدين فكانوا يحرّفون ما جاء في كتبهم (وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ).

انحراف ما كان يمكن أن يسوق إلا إلى الضلال والزيغ من هنا عالجت آيات سورة آل عمران الزيغ بالثبات والباطل بالحق والضلال بالهدى (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً (٨)) وغالب أشكال الانحراف قديمًا وحديثًا يأتي من المتاجرة بالدين والقيم لحساب الماديات والمصالح الطارئة العاجلة، إلا أن الأنبياء وهم صفوة الخلق برّأهم الله سبحانه من ذلك (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ . وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا (٧٩-٨٠)).

وهكذا يعرض القرآن لتلك الصور من الانحراف الواقع في عقيدة البعض من أهل الكتاب من عقيدة التثليث وادعاء الولد وما شابه، فهذه ليست دعوة عيسى عليه السلام (أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (٨٠)).

فجميع الأنبياء أخذ الله منهم ميثاقًا وعهدًا بنصرة الدعوة الجديدة (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢)).

أما انحراف البعض من أتباع الأنبياء عن ذلك فهو خروج على دعوة أنبيائهم ومسار دعوتهم. فما كان طلب الحق ومسايرة دعوة الأنبياء المحرّك لهؤلاء وإنما كان هوى النفس والتعصب للذات وحبّ الدنيا.

وفي المقابل القرآن يحذّر أتباعه والمؤمنين به من التفرقة بين الأنبياء فالإيمان بهم جميعا لبّ الإيمان (قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤)) فالتفرقة بين الأنبياء وبين دعوة الأنبياء كفر وضلال وباطل. كما أن تجاوز البعض من الأحبار والرهبان

وغيرهم على دعوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا يبرّر للمسلم أن يفرّق بين الأنبياء والرّسل.

هنا تبرز قيمة الثبات على القيم لتأتي ثمرتها المتمثلة في الهداية والحماية من الزيغ والضلال (كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ (٨٦)).

فالهداية نعمة وعطاء من الله عز وجل لعباده الذين ارتضوا الحق ورفضوا الباطل، كما أن الضلال عقوبة لمن اختار الزيغ والانحراف بعد أن أراه الله الحق والثبات (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) فصلت:١٧.

وفي آل عمران؛ (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠)) من هنا لن يُقبل من الضالّين عمل ولا فدية لتخليص أنفسهم من العذاب يوم القيامة؛ (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ).

وفي المقابل يوجّه الله عباده المؤمنين للإنفاق وبذل ما يحبون تقربًا لله (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ (٩٢)).

وفي الصحيح كان أبو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا مِنْ نَخْلٍ وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ وَكَانَ رَسُولُ

اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ قَالَ أَنَسٌ فَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ قَالَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَخٍ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ. صحيح البخاري.

وكان ابن عمر إذا أعجبه شيء في ماله وتعلقت به نفسه تصدق به ؛ لأجل أن يربحه ويجده أمامه.

المال الحقيقي الباقي هو الذي تقدّمه أمامك لآخرتك وليس المال الفاني الذي تخلّفه ورائك في الدنيا

وقيم الحق تستحق البذل في سبيل حمايتها وإعلائها ونصرتها، فالبذل هو الامتحان الحقيقي لمصداقية الإيمان، فما قيمة أن يؤمن الإنسان بالشيء ولا ينفق لأجله ولا ينصره ولا يرفعه (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢)).

(المتصدّق كلما تصدّق اتسع وانفسح وانشرح قلبه وقوي فرحه وعظم سروره ولو لم يكن في الصدقة إلا هذه الفائدة وحدها لكان العبد حقيقًا بالاستكثار منها والمبادرة إليها).

ابن قيم الجوزية

ثم تنتقل بعد ذلك الآيات لتبين نماذج من انحرافات وقعت في أهل الكتب ومنها أنهم حرّموا على أنفسهم ما لم يحرّمه الله، فشرّعوا لأنفسهم ما لم يأذن به الله عزَّ وجلَّ افتراءً على الله وظلمًا لأنفسهم. ولذلك وقفت الآيات عند قوله (قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ٩٥).

ويأتي العرض لتلك الانحرافات في سياق التحذير من الوقوع في شراكها والزيغ عن ملة إبراهيم عليه السلام وحنيفيّتها ولذلك جاء التحذير صريحًا؛ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠)). فمصداقية الإيمان؛ الطاعة والإتباع والسير على منهج الحق، أما إذا أطاع الناس غير الله سبحانه وارتضوا لهم منهجًا غير ما أنزله، فذاك مخالف لإيمانهم بالله، وأصبح إيمانهم مجرد ادعاء.

وتنتقل الآيات إلى التشديد على اجتماع الكلمة ووحدة الصف

والاعتصام بحبل اللّه وتقواه، فالتمسك بالتوحيد والاجتماع وجمع القلوب والتأليف بينها منجاة، منجاة للمجتمع وللأمة من الانهيار. والقرآن يؤكد أن هذه الوحدة لا تتحقق إلا في ظل تطبيق التوحيد الحق والبعد عن أهواء النفوس وأطماعها العاجلة.

(واعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ).

(متى ترك الناس بعض ما أمرهم اللّه به وقعت بينهم العداوة والبغضاء وإذا تفرّق القوم فسدوا وهلكوا وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا؛ فإن الجماعة رحمة والفرقة عذاب)

ابن تيمية. الفتاوى

ولذلك جاءت كلمة (وَاعْتَصِمُوا) تمسّكوا بحبل اللّه، واعتصموا به ينجّيكم. إلا أن هذا الأمر يحتاج إلى حماية وصيانة له من العبث به وتجاوزه، من هنا جاء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لصيانة وحدة الكلمة وقطع الطريق على الطامعين في هدمها أو التلاعب

بها لصالح غاياتهم الشخصية (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٠٥)).

ويشكّل الأمر بالمعروف صنوان القيم وسياجها فهو يمثل دور الفرد في حماية القيم والمكتسبات الإيمانية التي حققها التوحيد. فإذا تخلّى الأفراد والمجتمع عن تلك القيم وحمايتها، ظهرت الفُرْقة والتشتت ومن ثمّ انهارت الوحدة.

وحين تحدث الفُرْقة فلن يكون ذلك في صالح أحد، فالمجتمعات لا تُبنى تحت سقوف هشّة وقواعد ضعيفة واهية (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٠٥)).

والآية تتحدث عن أنواع من العذاب قد يكون في الدنيا – كما هو مُشَاهد من تمزّق الأسرة الواحدة وتفرّق كلمتها، والنزاع والخصومة بشتى أنواعها، ووقوع القتل وانتشار نطاق الحروب واتساع- وقد يكون في الآخرة أو في كليهما.

وما نراه في الواقع نتيجة طبيعية تحدث حين يتخلى الإنسان عن أوامر ربّه اللطيف الخبير، العالم بما تصلح به الحياة وما يُفسدها.

من هنا كانت خيريّة هذه الأمة في حفاظها على الإيمان والتوحيد والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر (تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ (١١٠)) والمعروف ما عرّفه الله لنا في كتابه: القيم، الحق، العدل، التسامح، الرحمة بالبشر دون تفرقة افتعلها الشيطان وهوى النفس.

فالمعروف والأمر بها هو الكفيل بالحفاظ على القيم السماوية التي جاءت بها كل الأديان؛ اليهودية والنصرانية والإسلام، وبدون الحفاظ عليه ستصبح تلك القيم قابلة للمتاجرة.

فالقرآن جاء ليُعلي تلك القيم من جديد ويؤكد أن دعوة الأنبياء واحدة إلى التوحيد وإلى العدل وإلى الحق، الدعوة واحدة ولذلك ليست الأديان هي التي تفرّق بين البشر بل أهواء النفوس هي التي تفرّق بينهم.

القيم العظيمة التي جاءت بها تلك الكتب السماوية ودعا القرآن أهل الكتاب إليها فخاطبهم وقال لهم (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ (٩٨)) لم تكفرون بتلك القيم وهي صُلب ما جاء به أنبياؤكم من قبل!.

وحماية هذه القيم تقتضي الأمر بالمعروف – القائم عليها– والنَّهي عن المنكر– المناهض لها– ولذلك جاءت الآيات في نفس السياق؛

(وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَاب لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ(١١٠)).

إذن هو الإيمان الداعي لتلك القيم والبانّي لها والخروج عليها عينّ الظلم والعدوان ولذا جاءت الآية التي بعدها (لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ(١١١)) فأعداء القيم السماوية لن يضرّوا أولئك الناصرين لها الآمرين بها (وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١١١)).

(كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ..وكل شرّ في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك؛ فسببه مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم والدعوة إلى غير الله)

ابن تيمية. الفتاوى

ولذلك فمن وسائل الثبات عند المؤمن أن يدرك ضَعف الفاسق والكافر مهما بلغت قوته المادية (لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١١١)) لأن الخروج عن أمر الله سبحانه وتعالى مدعاةٌ للهزيمة (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢)).

فلا طريق للخلاص لأيّ أمة من الأمم إلا بعودتها إلى المنهج الرباني ولذلك هذه الآية تعرض صورًا من إذلال الأمم حين تُخالف أوامر الله عزَّ وجلَّ. (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا) خلافات داخلية، تخلّف، استعباد، كوارث طبيعية، فالبعد عن المنهج الرباني كفيلٌ بتحقيق الهزيمة بكل أنواعها وصورها في حياة الفرد وفي المجتمعات والأمم (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ).

وهذه النماذج التي جاءت في التاريخ تجعل هذه الحقائق قوانين وسنن لا يحيد عنها أحد من البشر.

البعد عن المنهج الرباني وعدم تحكيمه في واقع الفرد وواقع المجتمع مدعاة لحدوث المحن والاضطرابات والخطوب ولا يُستثنى منها أحد.

ثم تنتقل الآيات بعد ذلك في سورة آل عمران لتقدّيم نموذج آخر من أهل الكتاب حقّق القيم التي جاءت بها الكتب السماوية (لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَاب أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ) ١١٣. فئة ثبتت ورسخت على آيات الكتاب وتفاعلت معها تفاعلًا إيجابيًا في واقعها؛ تلاوة لآيات الله آناء الليل وهم يسجدون، تعامل وتفاعل قلبي ووجداني واضح أثناء الليل. لكن في نفس الوقت هذا التفاعل الوجداني ما كان ليبقى تفاعلًا فقط في عالم الوجدان والعواطف بل تحوّل في النَّهار إلى فعل وسلوك وتطبيق في واقع الحياة (يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْم الآَخِر وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤)).

وهذا هو التعامل المثمر مع منهج الله عزَّ وجلَّ، يتفاعل المؤمن معه تفاعلًا يجعله يسجد يقضي الليل قانتًا راكعًا بين يدي ربّه عزَّ وجلَّ، خاضعًا متذلّلًا لتلك الآيات التي أوجدت لديه عناصر الإيمان، ثم ما يلبث أن يصبح في النَّهار طاقة إيجابية معطاءة لكل خير، مبادرة لكل عمل صالح، ترى في الحياة مضمار سباق للعمل الطيَّب الصالح وحماية لمكتسباته (وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ).

ومن الُملاحظ أن هذه الصفات المذكورة هنا هي ذاتها التي ذُكرت

في أمة القرآن (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ (١١٠)).

إذنْ هي القيم الثابتة التي جاء بها القرآن وجاءت بها كافة الكتب السماوية والأنبياء والرّسل من قبل، تلك التي تشكّل التفاعل الحقيقي مع المنهج الرباني وتمثل مصداقيته (وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٧)).

ثم تأتي الآيات بعد ذلك لتقدّم وسيلة من وسائل الثبات على الحق والقيم؛ ضآلة زهرة الحياة الدنيا من مال ومكتسبات مادية معجّلة قد يحصل عليها أولئك الذين نقضوا عهد الله في الحفاظ على أوامره؛ (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا (١١٦)).

فالذين حادوا عن قيم الحق أخطأوا في فهم الحياة وتقديرها والنظر إليها، فكانت النتيجة أن خسروا كل شيء (مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)).

(الناس إذا تعاونوا على الإثم والعدوان أبغض بعضهم بعضًا)

ابن تيمية

أخطأوا المقاصد والأهداف فجاءت كل الوسائل زائفة لا قيمة لها، وقعوا في ظلم أنفسهم حين ابتعدوا عن المنهج الربّاني العظيم، من هنا حذّر القرآن المؤمنين من تقريبهم (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا (١١٨)) فهذا الصنف من البشر يترصدون بأصحاب القيم لإلحاق الضرر بهم لمّا اختلفوا في المقاصد والأهداف وطبيعة النظرة للحياة.

وهنا يقدّم القرآن الكريم أساليب المواجهة مع هذا الصنف من البشر؛ الصبر والتقوى، فالصبر والتقوى يؤديان إلى الثبات والنصر (وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)). فاللّه سبحانه وتعالى يتولى الدفاع عن المؤمنين، بقدر دفاعهم عن أوامر اللّه سبحانه وحمايتها ونصرتها.

وليس المراد الصّبر السلبي بمعنى العجز والاستسلام والتراجع ولكنه بُعد النظر والتخطيط والنظر في المآلات وعواقب الأمور. من هنا كان صبر المؤمن على أصحاب المكائد والحيل والمكر من هذا القبيل، فلا تشتغل نفسه بتتبعهم والانتقام منهم مع الحذر منهم والفطنة.

(إذا اشتغلت نفسه - أي العبد- بالانتقام وطلب المقابلة ضاع عليه زمانه، وتفرّق عليه قلبه، وفاته من مصالحه، ما لا يمكن استدراكه، ولعلّ هذا يكون أعظم عليه من

المصيبة التي نالته من جهتهم، فإذا عفى وصفح فرّغ قلبه وجسمه لمصالحه التي هي أهم عنده من الانتقام).

ابن تيمية

أما التقوى التي تتحدث عنها الآيات في مواجهة أسلحة الأشرار فهي تقوى إيجابية لا تعني الخضوع لواقع منحلّ، أو الانفلات من العمل الصالح ولكن الوقوف والثبات على المبادئ والقيام بها، أمّة قائمة ثابتة راسخة (قل آمنت بالله ثم استقم).

وهنا تنتقل الآيات للحديث عن نموذج آخر لتحديات مختلفة في واقع المجتمع المسلم الأول في المدينة وما تعرّض له من أزمات وتحديات. والقرآن الكريم حين يعرض الأحداث التاريخية، يضع المتدبّر في قلب الحدث ويجعل منه شاهدًا على الوقائع بل ومراقبًا لها، لأخذ العبرة والدرس والتعلّم من الأحداث الماضية للتعامل مع الواقع واستشراف الخطوات المستقبلية. من هنا تختلف قراءة القرآن الكريم لأحداث التاريخ عن غيرها، فهي ليست للسرد بل للدرس.

وتبدأ الأحداث في السورة مع بدايات غزوة أحد حيث أراد المشركون الانتقام والثأر للهزيمة التي لحقتهم في بدر. وتشاور النبي صلى الله عليه وآله وسلم كعادته مع أصحابه حول الخروج إليهم وكان رأيه عدم الخروج والتحصن بالمدينة والدفاع عنها من الداخل.

ووافقه على ذلك جمع من كبار الصحابة وكذلك عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، إلا أن الغالبية وخاصة من الشباب الذين فاتهم القتال في بدر، رغبوا في الخروج فنزل الرسول صلى الله عليه وسلم على هذا الرأي ولبس درعه وحمل سلاحه. ثم إنهم رأوا أنهم قد ألحوا عليه بالخروج فندموا وأرادوا التراجع والبقاء في المدينة ولكنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: (ما ينبغي لنّبي إذا لبس لامة الحرب أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه).

وبدأ الإعداد المادي للمعركة التي بدأت التحديات منذ لحظاتها الأولى؛ فتراجع المنافقون ولم يخرجوا وبدأو ببث البلبلة في صفوف المسلمين (وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١)).

والقرآن العظيم لا يفصل بين الإعداد المادي والاستعداد الروحي في المواجهة مع العدو، فالتقوى قضية حاضرة لأي مواجهة أو معركة (والله سميع عليم) عليم بالنوايا ولذلك لا يمكن أن يتم إعداد الجيش دون التحفيز لزيادة رصيدهم من التقوى ومراقبة الله من خلال التذكير بأنه سبحانه مطّلع على النيّات والمقاصد والأهداف.

وهذه لفتة واضحة تُشعر المؤمنين بأهمية ترتيب أولوياتهم، فالخروج لا يكون لأجل مصالح شخصية، فلا يُخرجه إلا الله ولا يخرج إلا لله.

أما الخروج لأجل فرض السيطرة أو الاستحواذ على ممتلكات الشعوب والأمم، فتلك غايات لا مكان لها في حركة المؤمنين بهذا القرآن العظيم. من هنا يأتي النصر والتوفيق من الله سبحانه (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) ١٢٣. آل عمران)

(الإلتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع).

ابن تيمية

فالقرآن يؤكد أن النصر لا يأتي من الاستعداد المادي فحسب بل لابد له من عدة معنوية قائمة على الثقة والإيمان بالغاية التي يخوض المعركة لأجلها وأعظم غاية؛ رضى الله وإجابة أمره. وعندما يتحقق هذا الإعداد يأتي النصر من عند الله على أيدي المؤمنين به (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ).

من هنا كانت الوصية بالتقوى في أول آيات أحداث غزوة أحد في السورة (فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) الوصية بإصلاح علاقة الإنسان مع الله عزَّ وجلَّ التي بها صلاح شأنه. المؤمن لا يصلح

شأنه فردًا كان أو جماعة أو أمة إلا بإصلاح علاقته مع خالقه من خلال تنفيذ منهجه في الواقع.

ولذلك جاءت الآيات التي تليها بالبشارة للمؤمنين الصادقين الثابتين على الحق والتقوى (إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) آل عمران).

ومن تلك البشارات الإمداد بجيش من الملائكة.

وهذا الجيش الملائكي ما كان له أن يتحرك لأجل أناس تحرّكهم دوافع شخصية ومصالح ذاتية، فلا يتحرك إلا بأمر من الله الواحد القهّار (بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) آل عمران).

فوسائل الدعم الإلهي لا يخضع لقوانين التطور وتقنيات التقدم في آليات الحروب، ولكنها ثمرة للتقوى والصبر والثبات على المبادئ والقيم (بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ) والآيات التي قبل (وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ.

فالنصر يأتي من عند الله كما أن الهزيمة تأتي من عند النفس الأمارة بالسوء والخضوع لحظوظها الدنيا على حساب القيم العليا.

ولا تقف الآيات في تفاصيل غزوة أحد بقدر ما تقف عند الخطوط العريضة في المواقف، فقد حدث أن وضع النّبي صلى الله عليه وآله

وسلم فرقة من الرماة على الثغرة الموجودة في أرض المعركة، وأكد عليهم مرارًا عدم التخلي عن مواقعهم مهما كانت الظروف (إن رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَوَطِئْنَاهُمْ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ).

وبدأت تباشير النصر تلوح للمسلمين وظن الكثير من الرماة أن المعركة حُسم أمرها وأنه لم يبق أثر للمشركين، فنزلوا ليأخذوا من الغنائم، وثبت القليل منهم لأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فإذا بالمشركين يلتفّون حولهم لتدور المعركة على المسلمين الذين وقعت فيهم خسائر كبيرة. وشدَّد المشركون الحملة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى وصلوا قريبًا منه، فجَرَحوا وجهَه، وكمَّروا رُباعيَّته، وهَشَموا البَيْضَة على رأسه، ودخلت حَلْقتان من حِلَق المِغْفَر الذي يستر به وجهه في وَجْنَته.

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ) (آل عمران: ١٥٥).

وهنا تُوقف الآيات المؤمنين عند السبب الحقيقي لما حدث (اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا). ثم تنتقل الآيات للحديث عن تصحيح

الخلل ومراجعة الذات والتعلّم من الاخطاء والعثرات؛ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون).

وقد يقول قائل وما دخل الحديث عن الرِّبا في الحديث عن غزوة أحد، ومواجهة الكفار والحديث عن النصر والهزيمة؟!.

القرآن العظيم يعالج في آياته الأمور من جذورها، فيدفع بالقارئ للبحث في أوضاعه الفردية والاجتماعية والاقتصادية عن أسباب الأحداث الجارية والوقائع.

فلا يمكن لأمة – لم تتمكن من إصلاح أوضاعها الداخلية المجتمعية السلوكية الاقتصادية- أن تواجه عدوًا أو تنتصر عليه، من هنا كانت آيات سورة آل عمران تقدّم قوانين النصر وأسباب الهزيمة.

فالنصر والفوز والنجاح منظومة متكاملة تبدأ في النفس والداخل قبل أن تتحقق في الخارج. والرِّبا مكتسب غير مشروع حرّمه اللّه عزَّ وجلَّ لما فيه من استغلال لحاجة الضعيف، وما يترتب عليه من إيجاد طبقة من المترفين تقتات على طبقة من المحتاجين عوضا عن مدّ يد العون لهم ضمن إطار المجتمع الذي تقيم قواعده آيات القرآن.

ثم تنتقل الآيات إلى تقديم قانون الثبات على المنهج لتحقيق النصر (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢)). فآيات القرآن

العظيم نزلت لأجل أن تُطبق في واقع الحياة، في النفس والأسرة والمتجر والمدرسة بمعنى متابعة المنهج المقروء في كتاب الله في أبسط وأدق جزئيات الحياة.

وما تلبث أن تنتقل الآيات إلى الوسيلة الأخرى من وسائل النصر في المواجهة (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣)). والقرآن الكريم يأتي بألفاظ المبادرة والمسارعة والسباق حين يكون الحديث عن الآخرة. فأيام العمر محدودة والأجل محتوم والعمر قصير والمؤمن صاحب مبادرات، فلا يضيّع شيئًا من وقته فيما لا طائل من ورائه.

ولذلك جاءت الآيات التي تليها في متابعة المنهج في الحديث عن الإنفاق في السراء والضراء (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)).

ممارسات وسلوكيات اجتماعية متضمنة لكل أشكال الإحسان إلى الآخرين.

فالمؤمن المستحق لنصر الله، إنسان صاحب قيم وصاحب سلوك متميز في تعامله مع الآخرين. ثم تختم الآيات بالحديث عن التوبة والاستغفار والرجوع عن الذنوب!. إذ أن من أعظم أسباب الهزائم الفردية والجماعية في الأمم كثرة الذنوب والخطايا والمعاصي

ومخالفة أمر الله عزَّ وجلَّ وما أنزل في هذا الكتاب العظيم (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥)).

والاستغفار ليس مجرد كلمات باللسان؛ وإن كانت الكلمات جزءً منه، فمراجعة النفس والعزم على عدم الرجوع إلى الذنب والشعور بالندم والتراجع عن الأخطاء وإصلاح الأوضاع في غاية الأهمية.

والقرآن يخبر عن تلك القوانين التي مضت في مصائر ونهايات الأمم ليتأمل فيها الإنسان ويدرك عواقب الأمور (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧)).

(المعاصي سبب المصائب؛ فسيئاتُ المصائبِ والجزاءِ من سيئات الأعمال، والطاعة سبب النعمة؛ فإحسانُ العمل سببٌ لإحسانِ الله تعالى)

ابن تيمية

ومن ثمّ انتقلت الآيات لتهدئة النفوس والتخفيف عنها بعد أن أدركت جوانب الخلل وبيان أن الابتلاءات والهزائم والقروح والأحزان جارية بأمر الله ولابد للمؤمن من فقه معانيها (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠)).

وهنا تعرض الآيات سنّة المداولة بين الناس فالأيام ليست حكرًا على فريق دون آخر، ومن لم يفي بشروط النصر، لا يناله. إلا أن المؤمن تبقى روحه مليئة بالأمل والتفاؤل، يفقه معنى الابتلاء والاختبار فلا تدفع به المحن والمصائب إلى دوامة الإحباط والتشاؤم واليأس (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) آل عمران).

فالمؤمن يتعلّم من مواضع الخطأ والابتلاء ليخرج أكثر قوة وصلابة وأشدّ قدرة على مواجهتها (وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١)) والآية التي قبل (وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) اختبار، تمحيص، فلا يمكن أن يكون هناك إيمان بدون تضحيات.

كما أن المحن والشدائد والمصائب لها حِكَم، وفيها دروس وعِبر تفرز المؤمن من المنافق وتغربل عناصر الثبات فيه وتفرز عناصر الضعف من القوة في قلبه ونيته وإخلاصه لله عزّ وجلّ (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢).

(من كمال إحسان الرب تعالى أن يذيق عبده مرارة الكسر قبل حلاوة الجبر، ويعرّفه قدر نعمته عليه بأن يبتليه بضدها، فما كسر عبده المؤمن إلا ليجبره، ولا منعه إلا

ليعطيه، ولا ابتلاه إلا ليعافيه، ولا أماته إلا ليحييه، ولا نغَّص عليه الدنيا إلا ليرغّبه في الآخرة، ولا ابتلاه بجفاء الناس إلا ليردَّه إليه).

ابن قيم الجوزية

وهنا تبدأ الآيات بالحديث عن الموت ومواجهة الإنسان بحقيقته وعدم القدرة على الفرار منه بحال، فالتراجع والجُبن لا يباعد بين الإنسان والموت وكذا المواجهة والشجاعة والإقدام لا تقرّب الإنسان من أجله فهو مكتوب ومحدد (وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣) وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥)).

وبذلك يعالج القرآن الخوف من الموت بالمواجهة بحقيقته ليزرع الشجاعة في النفس الإنسانية ودفعها للثقة بالله سبحانه، والتضحية في سبيل تحقيق القيم التي أمر بها.

ولذلك ضربت الآيات مثلًا لكل المؤمنين الذين تخلصوا من الخوف

من مواجهة الموت فأقدموا على الدفاع عن الحق بثباتٍ ويقين (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ(١٤٦)).

فما معنى الإيمان إن لم يكن صاحبه مستعدًا للتضحية من أجل الدفاع عنه وحمايته، ثم يصحبه الدعاء ليصبح سلاح المؤمن القاطع (وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧)).

(إذا تأملت حكمته سبحانه فيما ابتلى به عباده وصفوته بما ساقهم به إلى أجلِّ الغايات وأكمل النهايات التي لم يكونوا يعبرون إليها إلا على جسر من الابتلاء والامتحان وكان ذلك الابتلاء والامتحان عين الكرامة في حقهم، فصورته صورة ابتلاء وامتحان، وباطنه فيه الرحمة والنعمة، فكم لله مِن نعمة جسيمة ومنَّة عظيمة تُجنى من قطوف الابتلاء والامتحان)

ابن قيم الجوزية. مفتاح دار السعادة

وفي تلك الأجواء الإيمانية العظيمة وتلك الاستعدادات المادية والروحية والوجدانية المتقبلة الراضية بقضاء الله وقدره، يأتي

الجزاء في الدنيا والآخرة (فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)). ومن تمام اليقين بالله، أن يتوجّه المؤمن بقلبه وقالبه لربه طاعة واستسلامًا، حينها يتولى الله سبحانه أمره.

في المقابل تنتقل الآيات بعد ذلك للحديث عن أسباب الهزيمة؛ الخضوع لأهل الباطل والانسياق وراء أهواء باطلهم (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩)) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠)).

ولذلك يبشّر الله سبحانه عباده المؤمنين بوسيلة لنصرهم على الكافرين؛ الرعب (سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١)) عن جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا وَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ) رواه البخاري ومسلم.

إلقاء الرعب في نفوس الكفار مهما كان استعدادهم المادي لملاقاة المؤمنين بسبب شِركهم بالله (بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ

سُلْطَانًا). إذاً فسلاح المؤمن في هذه المعركة الصدق مع اللّه عزَّ وجلَّ.

من صدق مع اللّه وصدّق ذلك بالعمل والتضحية، صدّقه سبحانه بالنصر والفوز.

(وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢). فحين استكمل المؤمنون في غزوة أحد أسباب النصر، صدقهم اللّه وعده. أما الهزيمة فتأتي من النفوس الضعيفة المتخاذلة، النصر بيد اللّه وحده. ولذلك جاءت أسباب الفشل بعد ذلك والهزيمة (حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ).

وهنا توضّح الآيات أسباب الهزيمة؛ الفشل أمام أطماع النفس والزيغ عن أوامر اللّه سبحانه. فالنصر والهزيمة لا يتعلقان بالعدو الخارجي بقدر ما يتعلقان بالصفّ الداخلي.

ولذا لم تأتِ آيات السورة بالحديث عن المشركين في أحداث أُحد بينما وقفت طويلًا عند مواقف المؤمنين المقاتلين مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم، دون محاولة إدخالهم في مرحلة جَلد

الذات والندم السلبي على ما فات دون تحليل المواقف والأحداث والإفادة منها مستقبلًا.

فالمؤمن إنسان ينظر إلى الأمام، قد تصدر منه الأخطاء وقد يحدث الخلل والمخالفة ولكنه لا يبقى أسيرًا لكلمة (لو أني فعلت كذا). بل إن القرآن العظيم يقدّم منهجًا مختلفًا في التعامل مع الخطأ من خلال الوقوف والتحليل للحدث والعبور إلى الأفضل وتحويل التعلّم من الخطأ إلى نقطة بداية جديدة نحو الأصوب والأحسن.

ولذلك القرآن يعرض بعد هذه الآيات لأصناف من البشر، يتراجعون ويتخاذلون في المواقف الشديدة الصعبة لعجزهم عن الثبات المنبثق من الصدق واليقين بالله (يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤)).

فالمنافقون يتراجعون في الشدائد والمحن حين يرون الموت بأعينهم، ويتوهمون أن الإقدام على القتال ومتابعة أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يعجّل قدوم الموت كما أن التخاذل والتهاون يمكن أن يحميهم من مواجهة الموت ودفع الأجل المحتوم.

ولم يدرك هؤلاء أن الموت بأمر الله وأن القتال والثبات والصبر

على الحق في المحن والشدائد والمعارك لا يمكن أن يكون هو السبب وراء تقديم أو تأخير الأجل المحتوم فالأمر بيد الله (قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ).

وتمضي الآيات في الوقوف على أسباب الهزيمة والتراجع؛ الذنوب (إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)).

فالذنوب من أعظم أسباب الهزيمة الفردية والجماعية، فلا يتحقق نصر دون تصحيح لأوضاع الأفراد في نفوسهم وأُسرهم ومجتمعاتهم. وبهذا تصبح التوبة عملية إيجابية ضرورية لتطهير المجتمع وتخليص النفوس من أخطائها وتجاوزها.

كما تعالج الآيات مرض الحسرة (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦)). فالمؤمن إنسان مستعد للتضحية إذا دعت الحاجة إلى ذلك، إنسان مستعد لمغادرة الأهل والمال والراحة لأجل قيمة الحق الذي يؤمن بها ويدافع عنها.

من هنا تأتي الآيات بمعنى مختلف للموت لا يعرفه المنافقون

والمتخاذلون أصحاب القلوب الواهية الضعيفة التي لم تعرف طعم وقوة الثبات والرسوخ على الحق (وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨)) الشهادة والموت في سبيل الله ليس موتًا بل هو حياة من نوع آخر، فهو لا يفقد الحياة بل يربح حياة جديدة، حياة الشهداء الذين ترفعوا عن المطالب الرخيصة العاجلة لأجل القيم التي أمر الله بحمايتها والدفاع عنها.

(النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغنى طغيانًا وركونًا إلى العاجلة، وذلك مرض يعوقها عن جدها في سيرها إلى الله والآخرة ، فإذا أراد الله بها الرحمة والكرامة قيّض لها من الابتلاء ما فيه دواء وشفاء لذلك المرض).

ابن قيم الجوزية. زاد المعاد في هدي خير العباد

من هنا برزت في غزوة أُحد نماذج فذّة من التضحيات والثبات، منهم أنس بن النضر عَمُّ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ وكان قد غاب عن قِتَالِ بَدْرٍ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُشْرِكِينَ، لَئِنْ أَشْهَدَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قِتَالًا لَيَرَيَنَّ اللَّهُ مَا أَصْنَعُ. فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ انْكَشَفَ النَّاسُ، قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ

إِلَيْكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ هَؤُلَاءِ - يَعْنِي المُشْرِكِينَ - وَأَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ - يَعْنِي المُسْلِمِينَ - ثُمَّ مَشَى بِسَيْفِهِ، فَلَقِيَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: أَيْ سعد، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ الْجَنَّةِ دُونَ أُحُدٍ، وَاهًا لِرِيحِ الْجَنَّةِ. قَالَ سعد: فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا صَنَعَ! قَالَ أنس: فَوَجَدْنَاهُ بَيْنَ الْقَتْلَى بِهِ بِضْعٌ وَثَمَانُونَ جِرَاحَةً مِنْ ضَرْبَةٍ بِسَيْفٍ وَطَعْنَةٍ بِرُمْحٍ وَرَمْيَةٍ بِسَهْمٍ، قَدْ مَثَّلُوا بِهِ قَالَ : فَمَا عَرَفْنَاهُ حَتَّى عَرَفَتْهُ أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ. صحيح البخاري.

وتستمر الآيات في تحميل الأفراد الشعور بمسئوليتهم إزاء ما حدث لهم (أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥).

إلا أنها ما تلبث توضّح لهم أن التضحية والثبات في سبيل الله أجرها عظيم (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ).

فالقروح والندوب والجروح التي تصيب المؤمن في سبيل الله بأمر الله وسيجزي الله الشاكرين، كما أن الموت أمر قد كتبه الله على المؤمن والكافر (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ (١٨٥)) ولكن هناك فارق شاسع بين من يموت في سبيل الله وبين من يموت في سبيل أهوائه وشهواته ومطامعه.

(والله تعالى ابتلى أولي العزم من الرسل، فلما صبروا مكنَّهم، فلا يظن أحد أنه يخلص من الألم البتة، وإنما يتفاوت أهل الآلام في العقول، فأعقلهم من باع ألماً مستمراً عظيماً بألم منقطع يسير، وأشقاهم من باع الألم المنقطع اليسير بالألم العظيم المستمر)

ابن قيم الجوزية. زاد المعاد

فالموت في سبيل الحق الذي امتلأ به صدر المؤمن مكسب حقيقي وليس خسارة وإن توهم المنافقون أنه خسارة (الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)).

فالمؤمن لا تزيده الشدائد وجموع الباطل إلا إيمانًا وثباتًا ويقينًا بوعد الله سبحانه (فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤)).

(من ملأ قلبه من الرضا بالقدر، ملأ الله صدره غِنىً وأمناً وقناعة، وفرغ قلبه لمحبته والإنابة إليه، والتوكل عليه، ومن فاته حظه من الرضا امتلأ قلبه بضد ذلك، واشتغل عما فيه سعادته وفلاحه).

ابن قيم الجوزية. مدارج السالكين. منزلة الرضا

وهنا يتضح جزاء المؤمنين الثابتين وما أعده الله سبحانه لهم في الدنيا والآخرة. وهو جزاء لا تصح مقارنته بحال الكفار في الدنيا وما يمليه الله سبحانه لهم من مال ومتاع زائل (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٧٨)).

فالمؤمن لا تتغير قناعاته الراسخة أمام ما يراه من استدراج للكافرين بإغداق المال والمتاع عليهم بخلاف المغترين من المخالفين لأمر الله ممن يتوهمون أن ذلك من قبيل المسارعة لهم بالخيرات.

ثم إن الآيات تقف بالمؤمنين على معنى آخر من معاني النعم ألا وهو كيفية استعمالها وتوظيفها. فالمخالف لمنهج الله عزَّ وجلَّ يستعمل المال والمتاع وسائر النعم في استجلاب غضب الله سبحانه، فيتوهم أن البخل والشحّ سيأتي له بالخير والزيادة والنماء (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُون مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَات وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠).

فليست المسألة في أن يُرزق الإنسان بمالٍ أو جاهٍ أو متاعٍ فحسب، بل عن أي طريق اكتسبها وفيمَ سينفقها!

كما أن المؤمن يدرك أن الابتلاءات في الدنيا بمختلف أشكالها من قبيل التمحيص والتمييز بين الخبيث والطيب، فلا يأخذه ألم الابتلاء

بعيدًا عن تلك الحكمة وذلك المقصد (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦)).

(ابتلاء المؤمن كالدواء له، يستخرج منه الأدواء التي لو بقيت فيه أهلكته، أو أنقصت ثوابه وأنزلت درجته، فيستخرج الابتلاء والامتحان منه تلك الأدواء، ويستعد به لتمام الأجر وعلو المنزلة، ومعلوم أن وجود هذا خير للمؤمن من عدمه).

ابن قيم الجوزية

الابتلاء سنة ماضية من سنن الله في الكون وفي النفس، تجري على المؤمن والكافر ولكن المؤمن يواجهها بالصبر والتقوى، ويحتسب ذلك عند الله (وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ).

(الله أرحم بعباده منهم بأنفسهم ومن آبائهم وأمهاتهم. إذا أنزل بهم ما يكرهون كان خيرًا لهم من أن لا ينزله بهم، نظرا منهم لهم واحسانًا اليهم ولطفًا بهم، ولو مُكنوا من الاختيار لأنفسهم لعجزوا عن القيام بمصالحهم علمًا وارادة وعملًا. لكنّه سبحانه تولى تدبيرأمورهم بموجب علمه وحكمته ورحمته، أحبوا أم كرهوا).

ابن قيم الجوزية. الفوائد

ثم تنتقل بعد ذلك السورة في خاتمتها إلى عبادة من أعظم العبادات؛ التفكر في آيات الله في الكون. :

جاء في الحديث أن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (لقد نزلت عليّ الليلة آيات ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)) (آل عمران: ١٩٠ - ١٩١. صحيح ابن حبان).

فالمؤمن لا يستقيم حاله إلا بالتفكر في آيات الكون المبثوثة في السماء والأرض وفي آيات الكتاب العظيم التي أنزلها في هذا القرآن العظيم التي تسوقه إلى الإيمان الحقّ (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١))

فالخَلق قام بالحق الذي ينبغي أن يُقام ويتحقق في الواقع. ولا يتم التوصل إلى ذلك إلا بالفكر والتأمل.

(تفكُّر ساعة خير من عبادة سنة؛ فالفكر هو الذي ينقل من موت الفطنة إلى حياة اليقظة، ومن المكاره إلى المحاب، ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة، ومن سجن الدنيا إلى فضاء الآخرة ومن ضيق الجهل إلى سعة العلم ورحبه، ومن مرض الشهوة والإخلاد إلى هذه الدار

إلى شفاء الإنابة إلى الله والتجافي عن دار الغرور، ومن مصيبة العمى والصّمَم والبكْم إلى نعمة البصر والسمع والفهم عن الله والعقل عنه، ومن أمراض الشُّبُهات إلى برد اليقين وثلج الصدور. وبالجملة فأصل كل طاعة إنما هي الفكر، وكذلك أصل كل معصية إنما يحدث من جانب الفكر).

ابن قيم الجوزية. مفتاح دار السعادة

والتفكر عمل يبدأ بالقلب والعقل والفكر والوجدان ويحرّك الجوارح للعمل والسعي الصالح في الواقع الذي لا يضيع فيه الأجر والجزاء (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ (١٩٥)).

لقد ولّد التفكر في حياة المسلمين الهجرة في سبيل الله والتضحية في سبيل الحق الذي آمنوا به، ونصرته بأموالهم وأنفسهم (فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ).

التفكّر ينفض عن المؤمن رداء الغفلة والبعد عن الله عزَّ وجلَّ والكسل والخضوع، ويجعل من المؤمن طاقة إيجابية مولّدة لكل

عناصر الخير والعمل الصالح في واقع الحياة (رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣)).

الأبرار هم أصحاب العقول التي استيقظت ضمائرها فأصلحت نفوسها والعالم من حولها. وهم أولئك الذين ثبتوا أمام تقلّب الكفار فأدركوا بفكرهم أنه متاع قليل (لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن (لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧)) تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٨)).

وأصحاب الفكر هم أولئك الذين يتخذون القرارات السليمة فيحفظون آيات الكتاب في قلوبهم ونفوسهم، ولا يتاجرون بالقيم السماوية (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا).

نفوس عرفت الإيمان فلزمته، أدركت الحق فحفظته في قلوبها وحياتها وفي واقعها، نفوس ما اشترت بآيات الله ثمنًا قليلًا أومتاعًا زائلًا (أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ).

سورة آل عمران دعوة مفتوحة للثبات على هذه القيم مهما بلغت التضحيات، تؤكد للمؤمنين أن أوان الباطل ساعة وأوان الحق إلى قيام الساعة. ولكن الأمر يحتاج إلى صبر ومصابرة ورباط وتقوى

من اللّه. ولذلك تختم سورة آل عمران بهذه الآليات التي ما فتئت منذ بدايتها إلى آخر آية تؤكدها وتحضّ عليها (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)) .

فلا يمكن أن يكون هناك نصر بدون ثبات، ولا يقوم الحق بدون ثبات أهله عليه. فسورة آل عمران هي سورة الثبات والرسوخ على الحق والإيمان.

بصائر

نستثمر في العقل ليقوم بدوره الحضاري

تُعنى المؤسسة بإصدارات الدكتورة رقية العلواني في تدبّر القرآن الكريم، التي تهدف إلى الإسهام في تنّمية الإنسان والمجتمع فكريًا وسلوكيًا واجتماعيًا وحضاريًا، وإرساء قيّم الاحترام والسلام من خلال تقديم رسالة القرآن القيّمية الحضارية.

وقد رُوعي في هذه الإصدارات أن تخرج بأسلوب تدريبي ميسّر يخاطب الأفراد بمختلف المستويات والخلفيات ليحقق رسالة تدبّر القرآن المنشودة ويُسهم في تسهيل عرضها والتّدريب عليها. كما تهتم المؤسسة بتقديم إصدارات التدبّر بلغات عدّة للمتحدثين بغير العربيّة لتقريب رسالة القيّم القرآنية الحضارية إليهم، مع التركيز على كيفية إفادة القراء منها في معالجة المواقف الحياتية والسلوكية التي يمرّون بها بأسلوب تدريبي يسهم في إعادة تأهيل التفكير الإنساني وتبنّيه للقيم الإيجابية القادرة على تحسين أدائه وتهذيب سلوكيات تعامله مع الآخرين في المجتمع.

للاتصال: basair@basair.me

الدكتورة رقية طه جابر العلواني

قامت بنشر العديد من المؤلفات باللغتين العربية والأنكليزية في مجالات علمية متنوعة مابين تدبّر القرآن الكريم ودراسات المرأة والأسرة ومشاريع التّنمية الشبابية وتعليم القيّم الإيجابية، إضافة إلى تخصصها في الدراسات الإسلامية ومقارنة الأديان. فازت بالعديد من الجوائز العالمية منها؛ جائزة كاتب التجديد من المنتدى العالمي للوسطية في المملكة الأردنية الهاشمية يوليو ٢٠١٣م، جائزة الأمير نايف بن عبدالعزيز آل سعود في السنة النبوية عن كتابها: فقه الحوار مع المخالف في ضوء السنة النبوية، وجائزة رئيس الجمهورية التونسية للدراسات الإسلامية ٢٠٠٧م. قامت بتقديم العديد من الدورات التدريبية خاصة فيما يتعلق بتنّمية وتعلّيم مهارات التدبّر والقيّم السلوكية الإيجابية. تعمل حاليا أستاذًا مشاركًا في جامعة البحرين.

الطبعة الأولى - 2014
رقم الناشر الدولي
5-8-731-9901-977
رقم الإيداع بإدارة المكتبات العامة
2013111786 د ع

BASAIR

د. رقية العلواني

للمساهمة في ترجمة وطباعة وتوزيع الكتاب في مختلف أنحاء العالم

بصائر

رقم الحساب المصرفي الدولي: BH37BIBB 00 100000175725
رمز السويفت لبنك البحرين الإسلامي: (BIC: B1BBBHBM)
البريد الإلكتروني: basair@basair.me